

سياسة الاستبداد مع البربر على المستوى العنصري والاقتصادي والأخلاقي:

تميز حكم الولاة في بلاد المغرب، _ سواء في العصر الأموي أو العباسي _ برسوم صور سوداء حالكة، جعلنا لا نميز ولا نفرق كثيرا بين ما اقترفه الرومان والوندال والبيزنطيون مثلا، وما عمل الولاة المسلمون، الممثلون للخلافة الإسلامية المركزية بالشرق.

"ذلك أن الولاة المسلمين في المغرب لم تكن لهم سياسة محكمة ولم يحفلوا كثيرا بحسن معاملة السكان وسلوك سبيل العدل معهم ... فعاملوا رعاياهم بقسوة وطمع غير متورعين عن خرق حدود الشريعة الإسلامية مع أنهم كانوا القيمين عليها"⁽¹⁾ وثبت خرقهم للشريعة الإسلامية، على الكثير من المستويات، سنتطرق لصور ونماذج منها فقط، لأن الإحاطة بكل جوانب ودقائق هذا الموضوع أمر صعب للغاية، فالمصادر العربية الإسلامية، ومؤلفات الباحثين المعاصرين، حفل بأخبار وإشارات وتحليلات وتفسيرات كثيرة ومختلفة، حاول فهم واستيعاب هذا الموضوع القديم _ الجديد، الذي يثير في كل

(1) - ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 105.

عمر بن عبد العزيز بهذه النزعة الإصلاحية عن باقي فترات الحكم الأموي. يبين أن " ولاية المغرب كانوا يمثلون مشيئة الخلافة وينفذون سياستها وأن الخلفاء درجوا على اختيار ولاية على شاكلتهم. وإلا فما تفسير سني الإصلاح التي شهدتها بلاد المغرب إبان ولاية إسماعيل بن عبيد الله الذي كان معيناً من قبل الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز" (1).

وهكذا فقد تراوحت السياسة التي اتبعتها الولاية في بلاد المغرب بين النزعة العنصرية الجامحة، والشطط الاقتصادي الواضح، والجرائم الأخلاقية والإنسانية في حق المغاربة.

فالنزعة العنصرية " تتجسد بشكل سافر في وجود سياسة أموية عامة قائمة على التفاضل بين العرب وبين غيرهم من الشعوب الأخرى كالفرس والروم والقبط والبربر والقوط ممن دخلوا الإسلام وأصبحوا موالى" (2). فهذا معاوية، كتب مرة إلى وردان (مصر): أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً. فريد عليه بقوله: كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألا يزد عليهم" (3). وهذا يبين أن هذه العنصرية امتدت إلى جميع الأقطار المفتوحة، وفي هذا الأمر يشير أحد الباحثين المعاصرين بقوله: " إن علاقة العرب... بالشعوب التي خضعت لهم كانت منذ بدايتها ثمرات نظام الفتوح الذي جعل منهم طبقة عسكرية متفرغة وأدى إلى تسييس الجيش منذ الثورة ضد عثمان بن عفان ... ومن خلال

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 131.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 130.

(3) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 72.

مرة الكثير من النقاش والجدل والمواجهة، ويثير أيضاً الكثير من التجدد في جوهره وعمقه وتفصيله، لذلك فنحن لن نباشر هذا الموضوع بالتحليل والتفسير وبالتالي إصدار الأحكام المطلقة، وإنما سنعتمد فقط على استقراء تاريخي للأحداث من خلال المصادر والمراجع المتاحة لنا حالياً.

فالواقع والمنطق التاريخي يثبت إثباتاً لا يقبل الاعتراض، أن الخلافة المركزية من خلال ولايتها في بلاد المغرب، سقطت في ممارسات سلبية بل وديئة تجاه المغاربة أدت بهم في النهاية إلى إعلان الثورة، التي ستؤدي إلى الانفصال عن هذه الخلافة التي لم تعد في نظرهم مؤهلة لأن يحكمهم باسم الإسلام، ليدخل الغرب الإسلامي مرحلة جديدة وهي بداية تكوين دول بل وإمبراطوريات مغربية ستعرف مجداً كبيراً، وستطبق نظرياتها في الحكم والعدل والمساواة، والإحسان ... بعد أن غابت هذه المبادئ أو بالأحرى تم تغييرها زمن حكم الولاية، " الذين لم يكتفوا باضطهاد خصومهم من الحي العربي، فحسب، بل لم يتورعوا عن الإساءة إلى أهل المغرب وخصوصاً بعد انتهاء عهد الخليفة الأموي الورع، عمر بن عبد العزيز، الذي سلك سياسة إصلاحية في كافة المجالات مستأرجاء الخلافة، وهي إعادة الدين الإسلامي إلى أصوله الأولى، وتطبيق أحكام الشريعة على جميع المسلمين في مختلف أقاليم الدولة دونما تمييز، فقد أعاد الهدوء والطمأنينة إلى قلوب المسلمين بهذه السياسة الحكيمة، وبعدم انتمائه إلى أي جماعة من الجماعتين المتنازعتين" (1)، وتميز عهد

(1) - دوزي، تاريخ مسلمي أسبانيا، ص 174.

دار الإسلام ولا تجبر هذه الجزية إلا من بقي على دين أسلافه، فكان أن أخذت الملة الإسلامية تتلقى كل يوم في أحضانها جماعات من المسلمين ... فقل دخل الخزينة قلة عظمى من ذلك مثلا خراج مصر بلغ في خلافة عثمان 12 مليون قطعة، ثم ما لبث أن تدهور في خلافة معاوية حتى بلغ 5 ملايين قطعة وذلك من جراء إسلام معظم الأقباط، ثم تدهور إلى أكثر من هذا زمن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز الذي لم يبال بالأمر حتى لقد بعث إليه أحد جباته رسالة يقول له فيها: لو استمر الأمر على هذا المنوال طويلا في مصر لجب الذميون ديانتهم ولأسلموا وقل الخراج في بيت المال. فأجابه: وددت لو أسلموا فما بعث الله نبيه جابيا ولكن هاديا"⁽¹⁾، لكن سياسة عمر هذه لم تستمر، فبوفاته، عاد الخلفاء بعده إلى سيرتهم الأولى المبنية على العنصرية الاقتصادية إن صح التعبير، فازدادت الفوارق بين العرب وغيرهم من الشعوب، فأصبحت البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامي تتشكل في العصر الأموي من طبقتين أساسيتين:

الطبقة الأولى: وهي الطبقة الأرستقراطية العربية الحاكمة التي تبرع على قمة هرم المجتمع الإسلامي وتصدره. الطبقة الثانية: وهي الشريحة المستضعفة من المجتمع التي تتشكل من الموالي وهم أهل الأمصار المفتوحة وعلى الرغم من إسلامهم إلا أنهم ظلوا مندرجين في الطبقة المحرومة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا"⁽²⁾.

(1) - دوزي، تاريخ مسلمي أسبانيا، ص 138.

(2) - عبد العزيز فلالي، المظاهر الكبرى لعصر الولاة، ص 25.

هذه المعادلة كان دخول المولى في الإسلام دخول التابع وليس الشريك"⁽¹⁾.

"ومن مظاهر التمايز العنصري، تجنيد البربر كمشاة في الحملات والجيوش التي كان الولاة يبعثونها لغزو الجزر البحرية في البحر المتوسط أوفي المغرب الأقصى وبلاد السودان، وحرم عليهم العمل كفرسان، إذ حظي العرب وحدهم بتلك الميزة، أكثر من ذلك كان البربر يتقدمون الصفوف، فيفنى منهم من يفنى لتلقيهم الضربات الأولى وبعد المعارك كان العرب وحدهم يستأثرون بالمغانم والفيء من دون البربر " فقد استعملهم العرب كوسيلة لتحقيق أغراضهم الاقتصادية وإشباع نهمهم من الأموال، في غزواتهم في صقلية وسردينية وبلاد السوس " والتي لم يكن لها من هدف سوى السلب والنهب"⁽²⁾.

وكل هذه العوامل والمظاهر العنصرية أحدثت تمايزا بين العرب والبربر، تمايز عنصري كان أحد السمات البارزة للدولة الأموية التي أنبتت هياكلها الاقتصادية على نظام الفتوح وما يوفره من مداخيل مالية ناجمة عن ضرائب الجزية والخراج والغنائم والأسلاب والسبي... حتى ارتبط لدى هذه الدولة وخلفائها وولاتها، ما هو عنصري بما هو اقتصادي، فكان ضروريا عليها أن تكون دولة عنصرية لتضمن تدفق مصادر اقتصادها، الذي قد يتعطل بتعطل مداخيل البلاد المفتوحة، " فقد كان المعروف أن أوامر الدين تسقط الجزية في الحال عمن يسلم من الذميين في

(1) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 16-17.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 132.

السنوات الأولى للفتح، حيث بلغ جشع بعض قوادها مدها، فكانوا يسترقون أبناء البربر حين يعجزون عن دفع ما عليهم من أموال... وبعد إتمام الفتح عول الولاة في القيروان على إتباع سياسة مالية جائرة فأرهبوا البربر بالمغارم والجبايات واعتبروا بلادهم دار حرب حتى بعد اعتناقهم الإسلام، فقد طبقت السياسة التي استنتها الحجاج في كافة الولايات الإسلامية لأنها ضمنت للخلافة مزيدا من الأموال، وتقضي هذه السياسة بعدم إسقاط الجزية عن الموالي أسلموا أم لم يسلموا، فضلا عن إرهاب الفلاحين بمزيد من الضرائب غير ضريبة الخراج". "فكان الولاة يتنافسون في جمع الأموال إرضاء للخلافة من ناحية، وكسبا للأنتصار وإشباعا لنهمهم من ناحية أخرى، فعكفوا على إرسال الحملات والجيوش تضرب في أطراف المغرب أو تهاجم الجزر البحرية في البحر المتوسط بغية السلب والنهب"(1)، "يدل على ذلك ما شاع على الألسن في ذلك العصر من إطلاق تعبير: أكل الولاية وحلبها كما تحلب الناقة"(2).

"وكانت طريقة الجباية التي فرضها المنتصرون مكروهة حسب رأي الفقهاء، ففي الموعد أو الموسم المحدد لها يتوجه المكلفون الذين تقع عليهم الضريبة إلى ديوان الخراج حيث يتخذ صاحبه العربي أريكة عالية، فكان الرجل يتقدم بخضوع باسطا يده اليمنى و فيها قيمة الضريبة فإذا امتدت إليها يد صاحب الخراج يتلقى حاملها صفععة على رقبتة من أحد مساعدي هذا

(1) - محمود إسماعيل، الخواج في المغرب الإسلامي، ص 29.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 138.

"وفي أوائل العصر العباسي، حل الفرس محل العرب فتصدروا الهرم الطبقي... وظل البربر في العصرين الأموي والعباسي بمعزل عن السياسة العامة للخلافتين معا"(1) فلم يشركوا قط في مناصب قيادية سواء سياسية أو عسكرية وإنما استعملوا كأداة لتحقيق أطماع الولاة والخلفاء.

أما الشطط الاقتصادي للولاة فيمكن رصده من خلال أربعة مظاهر:

"**الغنائم والهدايا:** التي كان الولاة يبعثون بها إلى الخلفاء.

السيبي: وقد نشط خاصة أيام الفتح، وبعد إسلام البربر لجأ الولاة إلى تسيير حملات عسكرية إلى الأطراف النائية كمنطقة سوس الأقصى.

التخميس: ويمثل ذروة تعسف الإدارة الأموية في المغرب في الميدان المالي بحيث تم اعتبار البربر أنفسهم وأموالهم خمس الغنائم يحق للولاة حق التصرف فيه.

الضرائب: وكانت نتيجة لتوقف الفتوحات وبالتالي توقف تدفق الغنائم فتم سن نظام جبائي يعتمد أساسا على الخراج والجزية"(2).

وهذا التعسف الاقتصادي أمر مفهوم ومعروف، "فمسؤولية الخلافة الأموية ترجع إلى أطماعها في خيرات بلاد المغرب منذ

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 130.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 136-138.

المنائين" (1).

واستمرت هذه السياسة الاقتصادية الجائرة في العصر العباسي مع "تفاقم تكوين الإقطاعات المعروفة بـ (الصوافي) المملوكة للولاة والعمال وكبار القواد فضلا عن أبناء البيت العباسي ... كما توسع الخلفاء في منح تلك الأراضي لمن كان لهم الفضل في إقامة دولتهم أو ساعد في الحفاظ عليها ... وحسبنا في هذا الصدد ما كان يملكه يزيد بن حاتم من إقطاعات ومراعي شاسعة في أخصب نواحي إفريقية" (2). هذا في الوقت الذي كانت فيه هذه البلاد تعاني ضروب القحط و المجاعات.

كما لم يتورع الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عن طلب المزيد من السبي من ولايته ببلاد المغرب.

قصارى القول، أنه لا السياسة الأموية ولا العباسية خرت العدالة والمساواة والاحترام في تعاملها مع المغاربة فكلاهما وجهان لعملة واحدة، وسنلقي الآن إطلالة كرونولوجية، سنتبع من خلالها بعض فترات حكم الولاة لنحاول الوقوف عند نماذج حية من التجاوزات التي اقترفها هؤلاء الولاة إن على المستوى العنصري أو الاقتصادي أو غيرها.

وسنبداً بلمحة موجزة جدا عن فترة ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير، لكنها لمحة كفيلة بأن ننطلق منها لتقييم شخصية وطريقة حكم عبد العزيز بن موسى الذي كان عاملا

(1) - عبد العزيز فلالي، المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص 49.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 141-142.

الأخير تدفع به حتى الباب وكان مسموحا للجمهور حضور هذا المشهد ... أما الذين يعجزون عن دفع الجزية المفروضة عليهم فكانوا يخضعون للتعذيب بحرارة الشمس الحارقة أو بصب الزيت على الضحايا ... وفوق ذلك كانوا يجبرون على تعليق حجارة أو جرار مملئة بالماء في أعناقهم ويكرهون على الوقوف موثقي لساعات طويلة على قدم واحدة مما يحول دون استطاعتهم بعد ذلك السجود للصلاة" (1) "فكان العرب يعاملون بدون شفقة ولا رحمة المسلمين الذين لم يمض وقت طويل على إسلامهم وخاصة منهم البربر" (2).

"ونتيجة حتمية لهذه التجاوزات فقد فشل خلفاء بني أمية في تحقيق الحد الأدنى من الهدوء والطمأنينة في نفوس الرعية التي تشبعت بروح الإسلام وعرفت تعاليمه ومبادئه ورأت بأن الأمويين لم يتمكنوا من وضع أساس لاستقرار العلاقة المتكافئة مع سكان بلاد المغرب" (3). فلم يكن من السهل على بني أمية التحرر من عقليتهم التجارية القديمة والتخلص منها ومن نزعتهم الشديدة للربح والاكتمساب، فقد انعكست على سياستهم المالية مع الرعية ... فتورطوا بذلك في جملة من الأخطاء والممارسات السلبية، ولم يكن لهم أي اهتمام، فيما يبدو، بقضايا شعوب المغرب الإسلامي لأن أكثر اهتمامهم كان منحصرًا في مزيد من المال، لتطويع المعارضين وضرب

(1) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 79.

(2) - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص 36.

(3) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 12.

الحجاج بسببهما" (1). وما يبين ويؤكد الأوصاف التي ألصقها ابن عذارى بالرجل، أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة، بلغه أن يزيد بن مسلم بن أبي مسلم خرج في جيش من جيوش المسلمين، فكتب إلى عامل الجيش برده وقال: إنني أكره أن أستنصر بجيش هو فيهم" (2). " وكان يزيد بن أبي مسلم قد عمل مدة طويلة في العراق تحت نظر الحجاج بن يوسف الثقفي، فتشبع بمنهاجه في الحكم" (3) " خصوصا وأنه كان صاحب شرطته " وأمين سره، فحذا حذوه في سوء معاملة الرعية والقسوة عليها" (4) " واستبد مع البربر، وفرض عليهم الجزية واستخف بهم، واشتد عليهم في جمع أموالهم و سبي نسائهم، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم" (5).

ومن مظاهر استبداد و تعسف يزيد بن أبي مسلم " أنه أخذ موالى موسى بن نصير من البربر فوشم أيديهم، وجعلهم أخماسا، وأحصى أموالهم وأولادهم ثم جعلهم حرسه وبطانته" (6). " وقام خطيبا على المنبر فقال: أيها الناس إنني قد رأيت أن أرسم اسم حرسى في أيديهم، كما تفعل ملوك الروم بحرسها، فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره حرسى.

(1) - الناصري، الاستقصاء، ج.1، ص.102.

(2) - نفسه.

(3) - عبد الله العروى، مجمل تاريخ المغرب، ص.131.

(4) - عبد العزيز فلالي، م. س. ص.34.

(5) - عبد العزيز سالم، م. س. ص.274.

(6) - ابن عبد الحكم، م. س. ص.77.

على الأندلس، التي رأينا سابقا أنها كانت تابعة لولاية المغرب التي كان عليها واليا آنذاك عبد الله بن موسى بن نصير.

"فقد كان عبد العزيز بن موسى، بعد خروج أبيه، قد تزوج امرأة نصرانية... يقال أنها ابنة لدريق ملك الأندلس الذي قتله طارق... فلما دخلت عليه قالت: مالي لا أرى أهل مملكتك يعظموه، ولا يسجدون لك كما كان أهل مملكة أبي يعظموه ويسجدون له، فلم يدر ما يقول لها فأمر بباب فنقب له في ناحية قصره وجعله قصيرا وكان يأذن للناس فيدخل الداخل إليه من الباب حين يدخل منكسا رأسه لقصر الباب، وهي في موضع تنظر إلى الناس منه فلما رأت ذلك قالت لعبد العزيز: الآن قوي ملكك" (1).

بعد هذه الإشارة البسيطة، من الأندلس، نعود إلى المغرب، لنلقي إطلالة على فترات حكم ولاته، ونستهل عملنا بفترة ولاية محمد بن يزيد القرشي " الذي خرج وهو يقول: مالي عذر إن لم أعدل" (2)، وكأنه يعلم مسبقا النهج الذي سينهجه مع سكان المغرب، وهذا أمر بديهي لأنه كان على إطلاع ومعرفة بالسياسة الأموية العامة.

وشكلت ولاية يزيد بن أبي مسلم، قمة الاستبداد بالمغاربة على جميع المستويات فقد كان هذا الرجل "ظلوما غشوما" (3) على حد تعبير ابن عذارى، كما " كانت فيه كفاية و نهضة قدمه

(1) - ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص.84.

(2) - الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص.58.

(3) - ابن عذارى، البيان المغرب، ج.1، ص.48.

لم يؤد بالضرورة إلى تعديل في الاتجاه العام للسياسة الأموية، لأن الوالي الجديد وهو من أركان الأرسطوقراطية التقليدية في هذا النظام كان حريصا على مصالحه الذاتية المتأقلمة حتى الانصهار مع خليفة له قبلية متعارضة، وهذا ما جعل من السنوات السبع التي قضاها بشر بن صفوان في السلطة استمرارا للنهج الذي بدأ مع سلفه في استعداد البربر وازدياد نفورهم من الحكم الأموي" (1). وفي البحث عن الأموال والمغانم والسبي، فقد وفد إلى يزيد بهدايا كان أعدها له، حتى إذا كان ببعض الطرق لقيته وفاة يزيد... فقدم بشتر بتلك الهدايا على هشام بن عبد الملك، فرده على إفريقيقا" (2)، "وأقره على عمله بالمغرب فقدمها" (3). "ثم غزا صقلية بنفسه سنة تسع ومائة، فأصاب سبيا كثيرا، ورجع إلى القيروان" (4)، "بعد أن هلك من جيشه خلق كثير" وما لبث أن هلك هو الآخر على فراش المرض ليخلفه القيسي المتعصب عبدة بن عبد الرحمان السلمي" الذي تبلورت معه مرحلة جديدة من المجابهة بين الأمويين والبربر فكانت سياسته الاقتصادية الأداة التي دمرت ما تبقى من مظاهر التعايش بين الطرفين حيث اقترنت بالأساليب القمعية المتطرفة" (5). " فقد كان شديدا في معاملته للبربر، فأسرف في غزو قبائلهم وسبى نسائهم وبالغ في التعسف معهم والجور

- (1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 352.
- (2) - ابن عبد الحكم، م. س. ص 90-91.
- (3) - عبد العزيز سالم، م. س. ص 296.
- (4) - الناصري، الاستقصاء، ج 1، ص 104.
- (5) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 352.

ليعرفوا في الناس بذلك من غيرهم ... فلما سمع ذلك حرسه، اتفقوا عليه وغضبوا وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، ودب بعضهم لبعض وتعاقدوا على قتله، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه" (1). "فقد رفضوا هذا الإجراء واعتبروه استخفافا بهم وضربا من المذلة والخنوع ورأوه بعيدا عن تعاليم الإسلام وتقاليد ومبادئه" (2). "كما فرض يزيد بن أبي مسلم الجزية على من أسلم من أهل المغرب، وقام برد من أسلموا إلى قراهم" (3) ويبرز سعيه الكبير لجمع الغنائم أنه " غزا صقلية سنة 101 هـ في وقت كان الموقف بالمغرب عصيبا" (4).

"والظلم الذي حاق بالبربر على يد يزيد بن أبي مسلم، إنما تم تحت سمع الخليفة وبصرها، فالخليفة يزيد بن عبد الملك، عرف بالطمع والجشع وحب المال الذي جمع له عماله منه ما لم يجمع لأحد من قبل، وإذا كان الحجاج بظلمه في المشرق قد أشبع نهمه، فإن يزيدا في المغرب قدم له المزيد ولا غرو، فقد قال فيها عبارته الشهيرة: ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهما فوجد دينارا" (5).

وكما رأينا سابقا، انتهى يزيد بن أبي مسلم مقتولا على عتبة المسجد، فأرسلت الخلافة واليا جديدا، "بيد أن تغيير الحاكم

- (1) - الرقيق القيرواني، م. س. ص 63-64.
- (2) - عبد العزيز فيلالي، م. س. ص 42.
- (3) - ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 403.
- (4) - محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 29.
- (5) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 131.

الغزو العربي

عبد الملك والي جديد، لن يكون إلا عبيد الله بن الحبحاب، الذي كان واليا على مصر" ويبدو انه كان مقربا من الخليفة وحائزا على ثقته فجاء إلى القيروان" (1) ليوطد أوأصر قرابته مع الخليفة، و لن يتأتى له ذلك إلا بتقديم أكبر قدر ممكن من الهدايا والأموال والسبايا، خصوصا وأن عبيد الله كان يتميز " بشدة ازدرائه لكل ما ليس بعربي، فكان لا يرى للقبط والبربر والأسبانيين وكافة الشعوب المغلوبة التي قل أن يعتبرهم آدميين، من عمل في هذه الأرض إلا الكد من أجل ثراء الشعب العظيم، وحدث _ وقت جبايته خراج مصر _ أن ضاعف عشرين مرة الجزية التي كان يدفعها القبط المسالمون بطبيعتهم والذين لم يمتشقوا السلاح أبدا، منذ لأن صاروا تحت الحكم الإسلامي، فضجوا من هذا الجور وهبوا بأجمعهم ثائرين" (2) وكان تغييرا شكليا فقط، وقد واصل نفس السياسة مع البربر، وهي السياسة التي تهدف إلى إرضاء الخلافة، كيفما كانت الطرق في ذلك، خصوصا وأن هؤلاء الخلفاء " كانوا يستحبون طرائف المغرب، وبيعثون فيها إلى عامل إفريقية فيبعثون لهم البربريات السنيات فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر بما كان فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة" (3) " فبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازيا إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه وأصاب

(1) - نفسه، ص 353.

(2) - دوزي، م، س، ص 133.

(3) - ابن عذاري، م، س، ص 52.

بهم" (1)، كما واصل البحث عن المغنم والأموال في الجزر البحرية، " ويفهم من استمرار الغارات البحرية طوال السنوات الخمس التي وليها عبيدة بن عبد الرحمان السلمي أن الإلحاح بالحرب الدائبة على بلاد الروم فيما وراء البحر كان قد أصبح سياسة مستقرة لا يجوز الإخلال بها" (2)، " فقد أرسل المستنير بن الحبحاب غازيا إلى صقلية فأصابتهم ريح ففرقتهم" (3)، ثم أرسل عبد الرحمان بن عبد الله إلى إفريقية " فغنم غنائم كثيرة" (4) " أما سردانية فلقد خصصت لها حملة منفردة في صيف سنة 114هـ" (5) وجمع عبيدة من كل هذه الغزوات ومن استبداده بالمغاربة غنائم كثيرة، فقد " كان ما خرج فيه من العبيد والإماء من الجوارى المتخيرة سبع مائة جارية، وغير ذلك من الحصيان والخيول والدواب والذهب والفضة والأنيبة" (6) " مما يذكر بأيام الفتح الأولى، قبل دخول البلاد في حوزة الإسلام، عندما كان المغرب أرض المغنم الثمينة والسببي الجميل" (7) " واعترف السلمي أخيرا بإخفاق مهمته، قبل أن يصيبه ما أصاب الوالي الأسبق يزيد بن أبي مسلم، فتنحى طوعا عن منصبه وغادر القيروان" (8) ليعين هشام بن

(1) - عبد العزيز سالم، م، س، ص 296.

(2) - سعد زغلول، م، س، ص 276.

(3) - ابن عبد الحكم، م، س، ص 92.

(4) - نفسه.

(5) - سعد زغلول، م، س، ص 277.

(6) - ابن عبد الحكم، م، س، ص 93.

(7) - سعد زغلول، م، س، ص 278.

(8) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في ق 1هـ ص 352.

الغزو العربي

المصدر الرئيسي لثروتهم أو بمعنى أصح وسيلة معيشتهم الوحيدة. بل اغتصب أيضا نساءهم وبناتهم وأرسلهن إلى الشام ليخدمن في القصور. وذلك لشدة ولع العرب بنساء البربر اللائي عرفن على الدوام بأن جمالهن يبيز جمال العربيات" (1).

أما عمر بن عبد الله المرادي. عامل ابن الحبحاب على طنجة وما والاها. " فقد كان أشد هؤلاء العمال ظلما واستبدادا(2)" فقد أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين... فكان فعله الذميمة هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد(3) بحيث "خرج ميسرة المدغري وقام على عمر بن عبد الله المرادي فقتله"(4) ثم تطورت الأحداث لتصبح تدريجيا ثورة حقيقية. انطلقت في أواخر الدولة الأموية. واستمرت طوال حكم ولاة الدولة العباسية. وهي ثورة كانت مبررا ارتكبت به الخلافة جرائم حقيقية وهذه المرة على المستوى العسكري. فالخليفة " هشام بن عبد الملك عزل بن الحبحاب عن إفريقية وما وراءوهما من المغرب وولى عليهما كلثوم بن عياض القيسي وأمره بقتل البربر"(5) "وقال: أقتل أولئك الرجال الذين كانوا يفتدون علينا من المغرب. أصحاب الغنائم قيل: نعم يا أمير المؤمنين قال: والله لأغضين لهم غضبة عربية. ولأبعثن إليهم جيشا أوله

(1) - دوزي. تاريخ مسلمي أسبانيا. ص 144

(2) - عبد العزيز سالم. م. س. ص 299.

(3) - ابن عذاري. م. س. ص 52.

(4) - الرقيق. م. س. ص 73.

(5) - ابن القوطية. م. س. ص 39.

من الذهب والفضة والسبي أمرا عظيما ولم يدع في المغرب قبيلة إلا دخلها فملئوا منه رعبا وخوفا. وسبي من قبيل من قبائل البربر يقال لهم مسووفة في طريق بلاد السودان نساء لهن جمال وكان لهن أثمان جليلة لم ير مثلها ورجع سالما حتى قدم على ابن الحبحاب" (1). وثقلت وطأة عماله جملة. بما كانوا يطالبون به من الوصائف البربرية مثل الأدم العسالية الأنوان وأنواع طرف المغرب فكانوا يتغالون في جمع ذلك حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسالية من سائحها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه. فكثير عيبتهم في ذلك بأموال البربر" (2). " وبذكر الطبري أن عمال الحبحاب كانوا يعمدون إلى الماشية فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد. و معنى ذلك أن ولاة بني أمية هددوا البربر الرعاة في مصدر رزقهم من الأغنام والماشية" (3).

" فقد رأى عبيد الله بن الحبحاب شدة الإقبال في العاصمة على صوف الخراف العسالية الذي تصنع منه الملابس الناصعة البياض فقد اغتصب من البربر أغنامهم و ذبحها جميعا على الرغم من انه كان قل أن يتوفر مطلبه من غير واحد من المائة منها. أما البقية الأخرى فهي إما جرداء أو قصيرة الصوف والتالي غير مفيدة للوالي. ولم يكتف بتجريد البربر من قطعانهم وهي

(1) - الرقيق. م. س. ص 72.

(2) - الناصري. م. س. ص 106.

(3) - محمود إسماعيل. قضايا في التاريخ الإسلامي. ص 140.

الغزو العربي

منذ أواخر الدولة الأموية ولم تنتهي إلا بتحقيق الاستقلال عن المشرق. لذلك فسندكتفي بهذه اللمحات عن حقيقة حكم الولاة وجاوزاتهم. ونعتقد "أن الأحداث المعروضة على الرغم من ظآلتها كمادة تاريخية فإنها تسوغ الرأي السلبي في تقويم الحكم الأموي. وتؤكد م أشرنا إليه في وقت سابق. و هي أن المسألة لم تعد دعوة دينية، بل تحولت إلى دعاية شبه مبرمجة لا تتوخى سوى النهب"⁽¹⁾. وهي الدعاية التي تواصلت بنفس الطريقة، أثناء التواجد العباسي في المغرب.

(1) - إبراهيم بيضون. الدولة الأموية والمعارضة، ص 79.

عندهم وأخره عندي، ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي"⁽¹⁾ ويبدو من خطاب هشام بن عبد الملك، إلى وإليه كلثوم بن عياض، عنصرية جامحة تجاه البربر، الذين سيواجهون مرة أخرى مؤسسة عسكرية قوية أثناء ولاية عبد الرحمان بن حبيب الذي "أمعن في قتل البربر وأمتحن الناس بهم، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا، يؤتى بالأسير من البربر فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله، فيقتله"⁽²⁾.

كل هذه التجاوزات التي شملت الجانب العنصري والاقتصادي والأخلاقي والعسكري والإنساني، تواصلت بلا هوادة أثناء الحكم العباسي بالمغرب، فهذا أبو جعفر المنصور يطلب من واليه عبد الرحمان بن حبيب المزيد من السبي، فيجيبه هذا الأخير قائلا: "إن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبي منها"⁽³⁾ لكن الحقيقة أن عبد الرحمان بن حبيب واصل سياسة البحث عن الغنائم والسبايا بحيث "غزا تلمسان... فظفر بما لم يظفر به أحد قبله، ثم بعث إلى إفريقية فأتى إليه من سببها بما لم يؤت بمثله من بلد ودوخ المغرب كله، وأذل من به من القبائل... وتداخل جميع أهل المغرب خوفه والحذر من سطوته"⁽⁴⁾. وواصل الولاة بعده نفس السياسة، على أن أهم ميزة تميز بها عصر الولاة العباسيين، هو أنه كان عصر الثورات المتواصلة التي انطلقت

(1) - الرقيق، م. س. ص 75.

(2) - ابن عذاري، م. س. ص 61.

(3) - الرقيق، م. س. ص 93.

(4) - الرقيق، م. س. ص 95.